النزعة العلمية
وصعوباتها الفلسفية

النزعة العلمية وعقباتها الفلسفية

كان لتقدم العلوم الوضعية وبخاصة العلوم الطبيعية القائمة على المشاهدة والتجربة أعظم الأثر فى نشأة الوضعية كما تبينا ذلك فى الفصل السابق . بل لقد ذهب كثير من المفكرين إلى الاعتقاد بأنه من المستطاع تخطى النتائج التى توصلت إليها الوضعية نفسها ، وقد كان يعزز نظرة هؤلاء مابدا فى نظريات التطور عند «لا مارك» *Lamark* «وداروين» *Darwin* من نتائج أحدثت انقلاباً خطيراً فى تفهم الظواهر وتفسيرها . أضف إلى ذلك ماحققه مذهب تداعى المعانى *association of Ideas* فى علم النفس. فاتجه الكثيرون إلى نظرية علمية خالصة تتوخّى أن تشمل فى نظرة واحدة العالم والبشرية بأسرها. هذا مايمكن لنا أن ندعوه بالنزعة العلمية *scientisme*.

ولا ريب أننا لو أنعمنا النظر لتبينا ثمة فارقاً بين الوضعية *Positivisme* والنزعة العلمية الخالصة *scientisme* . فهما يتفقان معاً على نقطة واحدة وهى أن كل مافى العلم سواء أكان علماً نفسياً أو اجتماعياً أو طبيعياً فهو يخضع للحتمية *déterminisme* على إطلاقها ، ولا يمكن من ثمة أن يتولد شىء ما إلا بمقتضى قوانين عامة ثابتة. ومن هنا لا يمكن أن يؤمن أصحاب المذهب العلمى وأصحاب المذهب الوضعى بإمكان قيام معجزة مثلا . ويترتب على ذلك إنكار للحرية أوحتى للإمكانية ؛ فظهور بعض العلل يستلزم حتماً ، ودون ماتخلف ، ظهور بعض المعلولات .

وهنا ينتهى الاتفاق بين المذهبين . فالوضعى لايذهب فحسب إلى أننا لانعرف سر الأصل الاول للعالم والمصائر التى تنتظره ، بل إن هذا السر نفسه مغلق علينا ليس لنا إليه من سبيل . وعلى ذلك فكل بحث يتناول هذا الموضوع فهو لغو فارغ . وينبنى على ذلك ماذهبت اليه الوضعية من

استحالة الميتافيزيقا . فهى لا تعدو أن تكون خرافة ينبغى أن نحذر من الوقوع فى حبائلها .

أما أصحاب المذهب العلمى فحين يقتنعون بصحة فرض ما، سواء أكان هذا الفرض خاصاً بالكم أو بالقوة أو بالمادة ، أو بعبارة أخرى إذا كان الفرض يتصل بطاقة معينة *énergie* ، ففى وسع الإنسان أن يفسر على ضوئه جميع ظواهر الكون من فلكية وطبيعية وكيميائية وبيولوجية ونفسية واجتماعية ، تفسيراً عقلياً ، ومع ذلك فأصحاب المذهب العلمى لا يؤمنون بعناية إلهية *Providence* . فالعالم قوة متدفقة تمضى فى تيار من التطور المادى ، ولا تستهدف هدفاً معيناً (١) .

تصور كهذا ينطوى على مادية خالصة ، هو تصور آلى ميكانيكى يُخضع ظواهر الطبيعة للحساب والتقدير . ومن ثم نجد أننا يمكننا أن نجمع تفسير الأشياء فى مجموعة من المعادلات الرياضية . وكلما ألفنا أن نفكر فى الظواهر تفكيراً رياضياً كان منهجنا منهجاً سليما. ومن هنا تحمس أصحاب هذا المذهب وأتباعهم للتصورات الذرية للكيمياء. وتُرجع هذه التصورات ما يقوم بين الأجسام من تجمع وتفرق وتآلف وتنافر ، إلى حركة الذرات وانتقال الجزيئات *molécules* . ومن هنا كان الحماس أيضاً للتصورات المتصلة بحركة الجزيئات فى الطبيعة ، لأنها ترد الحرارة والضوء والصوت وجميع قوى الكون إلى ذبذبات وتموجات يمكن أن نعرفها بحساب دقيق

---

(١) أرجع الى ص ٧٤ — ٧٥ من .

H. Wildan Corr : The scientific approach to philosphy. (London 1924).

وبمعادلات مضبوطة. ومن هنا كان كذلك ذلك الحماس الشديد للنظريات التطورية لأنها تفسر تكوين الأنواع بطريقة آلية تتحكم فى التغيرات التى تطرأ على الافراد. مثل هذه التغيرات إذا كانت ناجمة عن حركة موفقة ناجحة أدت إلى سعادة أصحابها وإذا كانت على عكس هذا جرت عليهم الشقاء. وينجم عن هذا التصور حتماً سيادة مبدأ «البقاء للأصلح». ومن هنا كان الحماس للنظريات النفسية من قبيل نظريات «تين *Taine*» و«سبنسر *Spencer*»، تلك التى تذهب إلى تصور إحساساتنا المختلفة تصوراً آلياً باعتبارها مركبات من وحدات من الإحساس تنتج الإحساسات المختلفة التى تتميز من وجهة الكيف وإحساسات أخرى تخرج منها تصوراتنا المجردة، ومن هنا كان أيضاً ذلك الحماس للنظريات الإجتماعية ونظريات الأجناس التى تدعونا إلى أن نرى كما رأى «تين *Taine*» آثار الوراثة والبيئة فى الأفراد والجماعات البشرية بحيث أن كل مايحدث فى الأفراد والمجتمعات فهو ثمرة عوامل ثلاث:

ا — الجنس ب — البيئة ج — ملابسات اللحظة الحاضرة.

هذه النظريات جميعا بدت فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر نظريات قوية راسخة، حتى أنها حفزت همم الباحثين إلى إتخاذ منهج التحليل فى كل دراسة يشرعون فيها، فأخذوا يحللّون كل مركب إلى أبسط أجزائه وترآى لهم أن هذا المركب إن هو إلا بنيان مؤلف من هذه العناصر، وبدا لهم أن أعظم منهج يجب أن يتبع للوصول إلى المعرفة هو المنهج الذى يعتمد على العمليتين الرئيسيتين:

أ — التحليل *analyse* و — ب — التركيب *synthèse* .

أما فيما يختص بالأفكار والمعتقدات الدينية بالمعنى التقليدى أعنى ما يتصل بالعناية الإلهية وخلود النفس وحرية الفعل سواء أكان هذا الفعل خيراً أم شراً ، ومسئولية الإنسان أمام نفسه وأمام الغير وأمام ربه ، فلم يعد لمثل هذه الأفكار وما على غرارها شأن يذكر فى مجال هذه النظريات الجديدة ، بل لم يتورَّع الكثيرون عن الجَهْر بأنها لا تعدو أن تكون أفكاراً خالية من المضمون ضعيفة فارغة لا معنى لها .

بَيْد أن موقفاً مادياً إلحادياً كهذا الموقف لا يمكن أن يروج بين الناس جميعاً وأن يحوز رضى المفكرين بأسرهم مهما بلغت عظمة النصر الذى انعقد للوضعية وتحقق للمذهب العلمى ؛ فقد بدأ كثير من المفكرين يؤلِّبون معارضة عنيفة ضد هذا التيار المادى الإلحادى المتمثل فى هذين المذهبين. وتجلَّت هذه المعارضة فى اتجاهات ثلاث تختلف فيما بينها ؛ تلك هى: ١ — المدرسة الروحية *Ecole Spiritualiste* و ٢ — مدرسة النقديين الجدد والبراجماطيين *Ecole Néo-Critiriste et pragmatiste* و ٣ — المدرسة المثالية *Ecole Idéaliste* .

١ — أما أنصار المدرسة الروحية فيسلمون بالطبع بما بلغه العلم من تقدم ، ويوافقون على أن فى مقدور العلماء أن يصلوا بمناهجهم العلمية عن طريق الملاحظة والتجربة والاستقراء إلى استكشاف طبيعة الظواهر الطبيعية والوصول إلى القوانين التى تتحكم فى العالم المادى . فنظرياتهم عن الذرات والجزيئات وتكوين النجوم وتطور الأرض نظريات

سليمة تستند ولا ريب إلى دعامات علمية قويمة ولا اعتراض لأحد بالتالى عليها . بيد أن ثمة مسائل لا سبيل لأصحاب المذهب العلمى أن يوضحوا طبيعتها توضيحاً مقنعاً . من قبيل ذلك أنهم يقفون عاجزين إذا ماسئلوا عن مصدر المادة ومنبع القوة ، ومن أين تأتى هذه الكائنات الحية التى تعمر الأرض ، ثم كيف يمكننا أن نرد التفكير ، حتى فى أبسط صوره ، إلى مجرد إنتقال ذرات وحركة حزيئات يتألف منها المخ ؟ كيف يسوّل أصحاب المذهب العلمى لأنفسهم أن ينتزعوا فى غير ما حَرَج هذه الحرية التى تنطوى عليها جوانحنا والتى تتمثل لنا تصوراً حياً فعّالا يشترك فيه أفراد الجنس البشرى جميعاً . هذه الحرية التى يعتز بها كل انسان والتى بدونها لا يكون هنالك مسئولية ولا تقدير ولا قيمة من القيم ؟

يرى أنصار المذهب الروحى أننا يستحيل علينا تفسير العالم تفسيراً مفهوماً معقولا مالم نعتمد على أفكار ثلاث جوهرية هى :

ا — العناية الإلهية : فهناك خالق مدبر للكون فاطر للمخلوقات .

ب — النفس اللامادية : وهى مبدأ الفكر ومنبع الإختيار .

جـ — الحرية الإنسانية التى تسمو على كل حتمية . هذه الأفكار الثلاثة أفكار روحية يمكن البرهنة عليها برهنة عقلية كما يرى أنصار المذهب الروحى .

٢ ـ أما النقديون الجدد فيرون أن المكان *l' espace* والزمان *le temps*

صورتان بسيطتان للإحساس الإنساني ، فكيف إذن يصح التسليم بصدق فلسفة لا قوام لها إلا على أساس اعتبار المكان والزمان حقيقتين ميتافيزيقيتين ، وعلى أن هنالك عدداً لامتناهياً من الجزيئات لا يمكن أن تنتقل أو يكون لها وجود إذا كان الزمان والمكان لا يوجدان إلا ظاهراً ؟ إن محاولة فهم العقل في نظرية كهذه تبدو محاولة عسيرة شاقة ، هي بمثابة « وضع العربة أمام الجياد » كما يقول المثل الشائع . فبدون العقل لن يكون هنالك وجود لزمان أو مكان ، ومن ثم ينقطع السبيل على مذهب العلميين في تفسير الأشياء . كذلك لا يجوز التسليم بحتمية كلية مطلقة إذ ليس ثمة دليل على ذلك . فما أكثر الظواهر التي نجهلها إذا قيست بتلك التي نعلمها والتي يظهرنا على طبيعتها ما بذلناه من بحث وجهد . ثم ذلك الشعور الذي هو حقيقة واقعة فينا ، أعني شعور الحرية والاختيار ، أليس من العجلة والتهور أن نهمله وننكر التسليم به ؟ أما البرهنة برهنة أولية *a priori* على حقيقة الحتمية الكلية فهي برهنة مستحيلة مالم نضع لها مسلمات تستلزم بدورها البرهنة كذلك . خلاصة القول في موقف النقديين المحدثين هو أنهم يرون أن الزمان والمكان ليسا شيئاً مادياً واقعياً تنتقل فيهما بالحركة ذرات وجزيئات كما يذهب إلى ذلك أصحاب المذهب العلمي ، وإنما الزمان والمكان مقولتان عقليتان لا بد منهما لكي تتم المعرفة[1] .

---

(١) يعتمد النقديون ـ الجدد في ذلك على فلسفة « كانت » والفلسفة النقدية عند « كانت » تقوم على أساس دراسة العقل البشري «فكانت» يضع مشكلة إمكان المعرفة وكيف يمكن أن تكون التجربة ممكنة ، ويستلزم هذا البحث في الشروط التي لا بد من توافرها لكي تتم التجربة . انظر المذهب النقدي عند « كانت » ص ٨٧ ـ ٩٥ من هذا الكتاب .

والبراجماطيون يرون أن المشاكل الميتافيزيقية لا يتيسر حلها حلا علمياً، ومن ثم ينبغى نقل حدودها ومحاولة دراستها فى النطاق العملى أو البراجماطى . فإذا لم يتيسر لنا معرفة ما هو حقيق فمن الحكمة أن نتساءل ماذا يجب علينا أن نعتقد ؟ ومن الحكمة كذلك أن نلتمس الإجابة على سؤالنا هذا لا بطريقة المنهج العلمى بل فى صميم حاجاتنا الحيوية . فنتساءل : ماهى المعتقدات التى تعيننا على أن نعيش وما هى تلك التى تزودنا بالأمل؟.

فالنقديون المحدثون والبراجماطيون، على مابينهما من خلاف، يجمعون على أننا لا ينبغى أن تبهرنا قضايا أصحاب المذهب العلمى . فهؤلاء أنفسهم ليسوا على يقين تام وثقة بما يقولون . بل ينبغى لنا أن نعقد العزم على أن نعتقد فيما تؤكده لنا إنسانيتنا وأن نؤمن بالواجب والحرية .

٣ — والمثاليون : يأبون أن ينشدوا قيمة ميتافيزيقية لنظرية كنظرية « كانت » فى الزمان والمكان وأن يسلموا بما سلم أصحاب المذهب العلمى من أن المكان والزمان عبارة عن حركة بين الذرات والجزيئات التى يتألف منها الواقع المادى .

يرى المثاليون أن الانحصار فى هذا النطاق المادى يجعلنا نغفل حقيقة على جانب كبير من الأهمية ، حقيقة أسمى من المادة تلك هى الوجدان أو الشعور *Conscience* . فالوجدان فى نظر المثاليين هو الشخص ذاته، وليس هناك من قيمة للزمان أو المكان إلا بمقدار فهم هذا الوجدان لهما. فالمكان والزمان إذن ليسا ماديين مادية بحتة كما يذهب العلميون إذ يرون أن الزمان هو الحركة التى تقع فى المكان ، وليسا كذلك مدلولين عقليين أوليين كما ذهب أصحاب المذهب النقدى؛ بل هما ثمرة وجدان الفرد .

فالمثاليون يهاجمون الماديين ولكنهم يختلفون عن الروحانيين وعن النقديين فالإنسان فى نظرهم وجدان قبل أن يكون جسما . فهم لا يسرفون فى المادة ولا يغالون فى الاتجاه العقلى ، بل يلتمسون الحقيقة فى الوجدان. والوجدان هو لُبّ الشخص، هو تلقائية خالصة *Pure Spontanéité* . فحيوية الإنسان تتمثل فى هذه التلقائية التى تميزه عن أى كائن آخر وعن أى عنصر من العناصر المادية . ومن هذه التلقائية الخالصة تتدفق حرية الإنسان .